سورة التَّوحيد دراسةٌ في خصائص الإقناع والتأثير اللغوي

أ.م.د. ميثاق حسن عبدالواحد

جامعة البصرة – كليَّة التَّربية للعلوم الإنسانيَّة – قسم اللغة العربية

ملخص البحث :

يهدف البحث الموسوم بـــــ (سورة التوحيد دراسة في خصائص الإقناع والتأثير اللغوي) لاستئناف القراءة التحليليَّة لسورة التَّوحيد المباركة؛ لترجمة السمات المضمونية المتشكلة خلف النَّسيج البنائي الأسلوبي الذي تميَّزت به، والوقوف على الخصائص التعبيريَّة الفاعلة في تحقيق أسس الإقناع والتأثير اللغوي، وصولاً إلى استجلاء مديات إسهامها في تشكيل بنيتها المفهوميَّة، فضلاً عن استخلاص أبعاد الفاعلية في تشكيل منظورها الحجاجي وتأشير مراكزه التَّواصليَّة.

الكلمات المفتاحيَّة: التَّوحيد، خصائص، إقناع، تأثير، تشكُّل أُسلوبي .

Surrat Al-Tawheed: A Study of Persuasion Features and Linguistic Impact

Asst. Prof. Dr. Mithaq Hassan Abdul-Wahid
Dept. of Arabic language , College of Education for Human Sciences,
University of Basra

Abstract:

The research entitled "Surrat Al-Tawheed: A Study of Persuasion Features and Linguistic Impact" aims at renewing the analytic reading of the Tawheed blessed Surrat and interpreting the connotative features structured beyond its peculiar structural and stylistic framing so as to highlight the most effective expressive features that lead to achieve the principles of persuasion and linguistic impact, and to reach at elucidating their scopes of contribution in framing their conceptual construction, and to extract the dimensions of effectiveness in framing the argumentative perspective of the text and marking its communicative centers.

Keywords: Tawheed, Features, Persuasion, Impact, Stylistic Framing.

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلّى الله تعالى على خير خلقه أجمعين سيِّدنا ومولانا محمَّد بن عبدالله النَّبيّ الصّادق الأمين، وعلى آله الطّيِّبين الطَّاهرين المعصومين وصحبه الأخيار المنزَّهين المنتجبين وبعدُ: فما يزال القرآن الكريم يُقرِّر مظاهر خصوصيَّته التعبيرية وسموِّه البياني، على جميع مسارات تشكله النَّصي الصَّوتي، والبنائي، والنَّحوي، والدَّلالي، مُجسِّداً أُسسَ فلسفته التَّواصليَّة الهادفة لتحقيق الخير والعدل والإصلاح، والوصول بالمخلوقين إلى حيثُ السَّعادةُ الأبديَّة.

امتلك القرآن الكريم بصيرة خطابية ثاقبة، واكبت معالمُها الشكليَّة الإعجازية مراحلَ نموٍّ بنيته المفهوميَّة على نحوٍ تفصيلي، محاكية سماتها في الحركة والحيوية ومؤازرة أبعادها المضمونيَّة في التَّعبير، والتَّقرير، والتَّعليل، والتَّدليل..إلخ. يجيءُ هذا البحث الموسوم بـــــــ (سورة التَّوحيد دراسة في خصائص الإقناع والتأثير اللغوي) ليدرس جانباً مهمَّاً من جوانب التَّماهي والمواكبة بين الشكل والمضمون، والوقوف على خصائص التشكل التَّركيبيّ التي تستمدُّ منها سورة التَّوحيد المباركة سماتها التعبيرية، واكتناه أبعاد تكوُّنها الأسلوبي الفاعلة في تقرير طبيعتها التأثيرية الإقناعية وتجسيد نزعتها الحجاجيَّة.

موضوع السُّورة :

يدور موضوع سورة التّوحيد المباركة حول مضامين الإيمان بالذّات العليَّة المقدَّسة والإقرار بطبيعتها الوجوديَّة الفريدة، المشخَّصة بسماتها في الوجود الواجب المطلق والاعتراف لها بكلِّ ما من شأنه تقرير أُسس وجودها الواجب المطلق غنًى، وقدرة، وإنعاماً، وتفضُّلاً.. وتمايزها وتفرُّدها عمَّا دونها من الموجودات الممكنة(١)؛ ولأجل ذلك حظيت هذه السُّورة بمكانة عظيمة في التشريع الإسلامي، حتّى جُعلت عِدْلَ ثُلث القرآن الكريم؛ لما اشتملت عليه من معاني التَّعظيم والتَّقديس والتَّنزيه(٢).

مبدأ فاعليَّة الإقناع والتأثير:

إنَّ القول بأنَّ منطلق النَّزعة الحجاجيَّة في سورة التوحيد يتمثل بصيغة القول الأمريَّة حُكمٌ مستعجِلٌ مبنيٌّ على إغفال الحُضور الوظيفي لعبارة البسملة المباركة(٣) ؛ لأنَّها بما تتكشّف عنه من المؤشرات التأثيريَّة الفاعلة في محاورة الوعي وإقناعه تُعدُّ نقطة البداية في تشكيل المسلك الحجاجي للسورة برُمَّتها. فالواسطة الحرفية التي تتحدَّد قيمتها الوظيفية فيما تؤدِّيه من معاني الاستعانة أو الإلصاق أو غيرهما تمثِّل بؤرة للتوظيف الأسلوبي الهادف لإثارة مركز الوعي والإدراك وجذب انتباهه نحو الغايات التعبيرية العالية لخصوصية هذا التوظيف، ومن ثمَّ فإنَّها مؤشِّرٌ جليٌّ للتأثير والفاعلية(٤) ؛ ((لأنَّ فيها تلميحاً من أول وهلة إلى إسقاط الحول والقوة ونفي استقلال قدرة العباد وتأثيرها، وهو استفتاحٌ لباب الرحمة، وظَفَرٌ بكنز لا حول ولا قوة إلا بالله)).(٥) فضلاً عن أنَّ فيها ملمحاً مضمونيَّاً مقابلاً لما كان قد درج عليه المشركون، من الاستعانة والتَّبرُّك بما كانوا يعبدونه من الأصنام(٦)، فالاستعانة الحقيقيَّة هي التي تنصرف تعليقيَّاً إلى ذات

القدرة الحقيقية المطلقة. والمنظور الإقناعي نفسُه نجده في الأبعاد الوظيفية للفظ (اسم) التي تتفاعل جميعها في تكوين القيمة الحجاجيَّة المرجوَّة في النَّص(٧). أمَّا لفظ الجلالة الألوهيَّة (الله) فإنَّه بؤرة الفاعلية التأثيرية الإقناعية ومحور الشُّحنات الحجاجيَّة في النَّص القرآني ككُل؛ من خلال معطيات الاشتقاق والتَّناسل اللفظي التي تُفصح عنها مساحة التحليل البنائي والقراءات التَّفسيرية، المؤكِّدة على أنَّه اسمٌ للذات المستجمعة لجميع صفات الكمال والجلال والجمال، الفاعلة في عوالم الوجود الظاهرة والباطنة على نحو السَّعة والشمول والإطلاق خلقاً، وإيجاداً، وإنعاماً، وإحساناً، وتفضُّلاً.. والجهة الوحيدة المطلقة المستحقة قصدَ الوجود وموجوداته بالطَّاعة، والانقياد، والتَّسليم، والعبادة(٨)، فهو القيمة المفهومية الأساس لمنظومة الخطاب السَّماوي المقدَّس والمحور الذي تتمحور حوله مكوِّناته اللفظية، وهو الكلمة المفتاحيَّة المركز التي تُهيمن على الحقول الدلالية للمعجم القرآني ككُل والنُّظُم المفهومية الأصغر، التي تقع ضمنه، فهو القيمة المركزية التي يتمُّ من خلالها استخلاص الفهم الحقيقي لأبعاد البنية النَّصيَّة المفهوميَّة للقرآن(٩). إنَّ لفظ الجلالة بنية شكلية متطوِّرة عن بنية (إله) لإفادة معنى الذات العظيمة المقتدرة المستحِقة صفات الكمال المطلق، وصاحبة الأهلية الحقيقية بمعنى الألوهية، ومن هنا يكون توظيفها في السياقات القرآنية كافة شافّاً عن غاياتٍ تعبيرية عظيمة وأهدافٍ وظيفية لطيفة، تتمثل بالسَّعي الحثيث إلى إثبات معنى الألوهية الحقة له سبحانه من جهة، والاجتهاد في تفنيد الأفكار الزّائفة والمعتقدات الباطلة وبيان مجانبتها الحقَّ والصَّواب من جهة ثانية، على وفق ما يُقرر الغرض المركزي لفلسفة الوجود برُمَّته وتلبية مقاصد المنظومة التواصلية السّامية، وهو الأمر الذي يُحتِّم على المتلقي استرعاء مؤشرات قصديَّته الوظيفيَّة المشروعة، المتمثلة بأنَّ اختيار لفظ الجلالة وظيفيَّاً في هذا الموضع من بين عناصر الحقل الدلالي الواسع المعبِّر عنه سُبحانه يهدف لتقرير معنى الألوهية وإرادته بصفة خاصَّة(١٠) ، وهذا دليلٌ قاطع على أبعاده التأثيرية ومسلكه الحجاجي الواضح.

إنَّ مؤشرات البُعد الحجاجي التأثيري تتمثل ببنيتي وصف الرَّحمة المتمايزتين صياغيَّاً (الرَّحمن ، الرَّحيم) أيضاً، اللذان تتَّضح خصائصهما الوظيفية في كونهما يُغنيان عمَّا سواهما من الأوصاف والأسماء، فضلاً عن أنَّ في ارتفاع تركيز مادة الرَّحمة وكثافتها مؤشراً على اشتمال المركب الوصفي الثنائي المزدوج على المضامين الوصفية الأخرى، في ضوء الدلالة الجنسية التي تتوزَّع على جانبي بيان الهيئة الذاتية والفعلية؛ تقريراً لمضامين كلٍّ من الفاعلية والمفعولية، ليكون ازدواج الصيغة الصرفية لمادة الرحمة الموصوف بها دليلاً على تجسيد السمات والخصائص الوصفية، على وفق التقاسم الوظيفي الشامل لجميع القيم الوصفية المقصودة، الأمر الذي يجعلهما مشحونين بطاقة تأثيرية عالية، يُقتضى الوقوف عليها وقراءتها على نحوٍ أمثل، فما دامت مساحة القراءة التحليلية مؤسَّسة على النَّظر إلى لفظ الجلالة باعتباري سمات الذات وسمات الفعل، وهو ما يُعدُّ مسلكاً متاحاً للتوجيه في ضوء القيمة المرجعيَّة المزدوجة، التي يُمكن تحديد بُعدَيها بالقيمة المرجعيَّة المؤهَّلة لمطابقة صفات الذات والقيمة المرجعية المؤهَّلة لمطابقة صفات الفعل، الأمر الذي يُسوِّغ إمكانيَّة إجراء الفرز داخل حدود المرجعيَّة الوصفيَّة، والتَّوجيه على وُفق معنى جنس الألوهيَّة المتمثل بلفظ (إله) المنظور في معطيات البناء الاشتقاقي للفظ الجلالة المحتملة قياسيَّاً أو غيرَ قياسيّ،

المرجَّحة أهليَّتُه بقيمة المرجعيَّة من وصفي الرَّحمة، ومعنى الذات الحقّة في الأُلوهيَّة بصرْف النَّظر عن القيم المضمونية لأصل التَّناسل اللفظي، سواء أكانت دالة على المعبوديَّة، أم على الانْحِجاب، أم على التَّحيُّر، أم على التَّعالي، أم غير ذلك ممَّا ذُكر في القراءات الصَّرفيَّة والمعجميَّة، ولا عبرةَ بعد ذلك بقيم القراءة المضمونية الموجِّهة للقيمتين الوصفيَّتين على أساس التَّمايز الفلسفي المحتذى. وإذا كان التعبير عن المعنى بصورة لفظيَّة مغايرة لطبيعة واقعه الاستعمالي(١١) ، فإنَّ حمل الصِّبغة الوصفيَّة المكثَّفة على مطابقة قيمة المرجع المستتر خلف رداء التحويل البنائي، الذي جاءت البنية الوظيفيَّة المتطوِّرة (الله) متكشِّفة عن آثاره مسلكٌ تأويليٌّ راجح؛ لتكون دقة غرض التوصيف ولطافة غاياته التعبيرية في التخليص من دائرة الجنس مخبوءة في بنية العلاقة التَّبعية، ومعبَّأة في بنية القيمة المرجعيَّة المؤكَّد عليها في القراءات اللغوية على اختلاف مناهجها وتفاوت فضاءاتها الزَّمنية، لتترشَّح عن ذلك أبعاد وظيفية جديدة للقيمة الوصفيَّة ، تتمثّل بتقرير أسُس الجدل والحجاج في الكشف عن ذات الأهلية الحقة بمعنى الأُلوهيَّة، على وُفق آليَّات التحليل العلمي العملي وإجراءات الافتراض والتَّصوُّر العقلي الإدراكي، ليتم تخليص الواحد الحق المتفرِّد من دائرة الجنس المفترض حجاجيَّاً، المزعوم نوعيَّاً وعدديّاً على جهة الشكل المادي الخالي من المفهوم، المنضوي في أحد جانبي لفظ الألوهية، وهو معنى جنس الألوهية؛ لجذب الذِّهن وشحذه وتحفيزه نحو مديات التوصيف المؤكد واستخلاص حيثيَّات انطباقه، على الواحد المخلَّص من دائرة التَّعدُّد الافتراضي، ورسم مسارات انصرافه الواقعية المنطقية الحقيقية اتِّجاه ذات الوجود الواجب المطلق؛ لتتشكَّل بذلك قيمة تعبيرية فائقة تُضفي على القيمة الغرضيَّة المشخَّصة رجاحة ورواجاً، تترك آثارها في تعزيز الإيمان وتقويته وترسيخه(١٢)، فما دامت الغايات الوظيفية للوصف تنحصر بقيمتي تحديد الموصوف وإتمام المتَّصف به وإكماله(١٣) ، فإنَّ من المناسب حملَ غايات الجدل والاستدلال والمحاججة على مضامين الإتمام والإكمال تلك.

إنَّ استنطاق السمات التعبيرية للوصفين المتمايزين صيغيَّاً واستشعار ظلالهما الإيحائيَّة، المتمحورة حول معنى الفاعلية الرَّبّانية المقتدِرة الخالقة المُنْعِمَة والمفعولية المربوبيَّة العاجزة المخلوقة المُنعَّمة يُشير إلى أنَّ المراد من الوصفين تجسيد معنى الرحمة المطلقة للذات الفاعلة، التي تستبطن غاياتها الوظيفية التعبيرية، وتحمل موجبات الموقف الوجودي المقتضى إزاءها وما ينبغي أنْ يكون عليه المربوبون من معاني الحمد والشكر والثناء، التي من أُولى مراتبها وأهمّها الإيمانُ بالله سُبحانه وتعالى والاعتقاد بأُلوهيَّته ووحدانيَّته والتَّسليم له، ومن ثمّ يمكن مقاربة بنية البسملة لفظيَّاً بـــــــ (بسم الله الرَّب التّام الرُّبوبيَّة، الفاعل في الرُّبوبيَّة الحقة المطلقة والمستحِق الشكرَ عليها) (١٤).

ركائز الإقناع والتأثير اللغوي:

إنَّ إجراء معاينة تأمُّلية سريعة لبنيتي السورة المباركة الشكلية والمفهومية يكشف عن توزُّع ركائز الإقناع التركيبي فيها بين مؤشرات التفاوت في البناء الإسنادي ومؤشرات البناء التركيبي المؤسس على خصائص التشكل الأسلوبي، وكما يأتي:

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

أوّلاً/ مؤشرات البناء الإسنادي:

اتَّسمت الجمل والتراكيب في سورة التوحيد بتفاوتها في طبيعة البناء وانقسامها بين الاسمية والفعلية، ففي حين ابتدأت السورة بعبارة البسملة التي تباينت القراءات اللغوية في شأن طبيعتها من حيثُ الاسميةُ والفعليةُ، ثمّ جاءت الصِّيغة الفعلية الأمرية (قُل) التي مثّلت بؤرة القيمة التواصلية ومحورها الأساس، فانتقلت إلى البناء الاسمي في التعبير عن أُولى قيم جملة مقول القول، فجاءت مضامين الألوهيَّة والوحدانيَّة والصَّمديَّة على وُفق البنية التركيبية الاسمية، ثمّ تحوَّلت إلى البناء الفعلي فجاءت مضامين نفي الوالدية، ونفي المولودية، ونفي المكافأة والمُمَاثلة والمُشابهة على وُفق البنية التركيبية الفعلية، ولا شكّ في أنَّ لهذا التَّصرُّف التَّعبيري أهدافاً وظيفية وغاياتٍ تعبيرية تقف وراء خصائص التّمايز والتّفاوت وتُبرِّرُها. إنَّ أوَّل المنبِّهات الوظيفيَّة التي تستثير القراءة والتلقي تتمثّل ببنية صيغة القول الحدثيَّة الأمريَّة، فما المراد بالقول؟ ولماذا وُظِّف بصيغة الطَّلب الأمريّة؟ وما قيمته التعبيريَّة بالنِّسبة للمضامين المترتبة عليه قوليَّاً والمتفرِّعة عنه تركيبيَّاً؟

القول في اللغة النُّطق، يُقال: قال، يقول، قولا إذا نطق، وأفصح عمَّا في داخله(١٥). لكنَّه يُستعمَل أيضاً للدَّلالة على الأفكار والآراء والاعتقادات(١٦) ، وإذا كان القول ((إبراز ما في القلب وإنشاؤه بأيِّ وسيلة كانت. وهذا المعنى يختلف باختلاف الطرفَين من جهة التَّفهيم والتَّفاهم. فالقول غيرُ مخصوص بالإنسان وبالأذن واللسان، بل يجري في أيِّ مقام ومرحلة من عوالم اللاهوت، والعقول، والملائكة، والإنسان، والحيوان، وسائر الطَّبيعيَّات))(١٧) ، فإنَّ من المناسب النَّظر إليه في ضوء بُعدَيه المادي الحقيقي والمعنوي المجازي، وعدم الاقتصار على الجانب المادي الحقيقي. للقول في القرآن الكريم قيمة تعبيرية كبيرة، تؤشر بُعداً وظيفيَّاً قارّاً على امتداد بنيتيه النَّصيَّتين الشكلية والمفهومية، وأنَّ هذا البُعد الوظيفي يتجاوز حدود أبعاده اللغويَّة المادية المتمثلة بالنُّطق، فالفهم الأولي المترتب على طلب القول أمريَّاً بالصِّيغة الفعلية (قُلْ) يقتضي تشكل مضمون طلب حصول القول بما سيأتي من المتلقي الأوَّل للنَّص، ومن المأمورين بتصديق الخطاب السَّماوي والإيمان بفحواه من بعده، وتكرار تحقق القول بمضامين الاعتراف والإقرار الآتية طلبيَّاً يؤدي إلى تعزيز قيمته وتقوية مضمونه، وهذا بدوره يقتضي اجتياز مرحلة التَّلفُّظ القولي المادي ومفارقة حمْلِه على ظاهر معناه وصولاً إلى مرحلة التَّحقق العملي الفعلي المتماهية تماما ومعنى تحقق الإيمان والاعتقاد والتَّصديق بمضمون المقول قولاً وفعلاً، بل وترتيب الأثر على ذلك. يكتسب هذا المنظور قوة وتعزيزاً من قيمة التحليل الوصفي للبنية التركيبيَّة، ففاعل القول أو المُطالَب بإحداثه واحدٌ (أنتَ) ؛ لمقتضى قوانين البناء الشكلي الإسنادي، لكنَّه منفتح على دائرة التَّعدد والتَّنوُّع؛ لمقتضى غايات الفلسفة الخطابية التواصليَّة وأهدافها السامية ذات النَّزعة الشُّمولية العامة، فالمُطالَبون بالقول كُثُر، وتواترُ القول منهم إنفاذاً للطَّلب تأكيدٌ لأبعاد الآتي من المضمون وترسيخٌ وتقريرٌ، فهو قولٌ مُنزَّلٌ منزلة الإيمان بماهيَّة المقول.

هناك العديد من الموارد القرآنية التي تؤيِّد مسلك البُعد الوظيفي الأسلوبي الذي يحتذيه فعل القول قرآنيَّاً، كقوله تعالى: ((**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا**

طَائِعِينَ)). (فُصِّلت:١١) فالقول من المخلوقتين العظيمتين تقريرٌ لمعنى إطاعتهما وانقيادهما وخضوعهما، واستجابتهما استجابة وعيٍ وإدراكٍ وشعور(١٨)، فالإتيان الجوابيّ المقتضى في البنية الحالية (طائعين) يوحي بمضامين الوعي والإدراك والشعور، المقرِّرة طبيعةَ الإتيان النوعي المخصوص(١٩). وهذا ينطبق على قول الذات المقدّسة فإنَّهُ تعبيرٌ يُقرِّبُ إلى الأذهان كيفيَّة انبناء الإرادة الإلهيَّة وتحقُّقها، كقوله تعالى: ((**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**)). (البقرة:١١٧) ، وقوله تعالى: ((**قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**)). (آل عمران:٤٧) ، وقوله تعالى: ((**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**)). (النَّحل:٤٠) ((فالقول من الله العزيز يُتصوَّر بأيِّ نوعٍ يُناسب حال الطَّرف في جهة التَّفهيم)).(٢٠) ونظير ذلك ما تمثل بقوله تعالى: ((**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**)). (الحُجُرات:١٤) إذْ لا قيمة لماديَّة القول ما دام القلبُ محلَّاً لمضمون المقول، ومثلُه قوله تعالى: ((**قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**)). (البقرة:١٣٦) فلا عبرة بطلب القول منهم ما لم يقترن بالتَّصديق والإيمان والطَّاعة والعبادة، وأمّا قولُ اليُسْر الوارد في قوله تعالى: ((**وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً**)). (الكهف:٨٨) فإنَّه دليلٌ ساطعٌ على تحقق الخاصية الأسلوبية التي يتخذها فعل القول القرآني وظيفيَّاً. وكذلك القول في الأنفس: ((**وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ**)). (المجادلة:٨) فإنَّه أفكارٌ ونوايا تنطوي عليها سرائرُهم، والله سبحانه وتعالى بها عليم(٢١). ومن ذلك نخلص إلى أنْ تكون لفعل القول في سورة التَّوحيد جنبتان: جنبة مادية حقيقية نُطقيَّة تُطابق معطيات سبب النُّزول المقروءة تفسيريّاً والمتمثلة بالرَّد على مزاعم المشركين وتخرُّصاتهم إزاء الذَّات العليَّة المقدَّسة(٢٢)، وجنبة معنوية مجازيَّة تواكب أحوال المتلقِّين إلى ما شاء الله تعالى، مقتضاها الإيمان والتَّسليم والطَّاعة، ومن ثمّ يكون حدثاً طلبيَّاً أمريَّاً مستوعباً مؤشِّرات ما سبقه حجاجيَّاً، فاسحاً المجال أمام مداه الدلالي المنتقل – تحت تأثير كثرة القائلين المتلبِّسين به إسناديَّاً – إلى ما وراء التّلفّظ اللساني الآلي المادي من الإيمان والاعتقاد روحيَّاً وقلبيَّاً.

إنَّ خُروج الذات المخصوصة بالإقرار والاعتراف مفعوليّاً عن النطاق الظَّرفي الزماني لدائرة الإقرار والاعتراف والإيمان واستقلالها عنه، المجسَّد في البنية الإحالية (هو) يؤشر مضمون الوجود الأزليّ المتعالي على قوانين القِدم والحداثة، وهي بذلك لا يُمكن أنْ تُقارَن بأيَّة لحظة زمانية سواء أكانت خطابيَّة أم غير ذلك، زيادة على أنَّه يُعدُّ مؤشِّراً أُسلوبيَّاً على معاني الموضوعيَّة والمنطقيَّة والتَّجرُّد عن الذاتية في الإقرار والاعتراف والإيمان. إنَّ حملَ ضمير الغيبة على مطابقة مقتضيات مقام السابقين المقرَّبين، النَّاظرين إلى حقائق الأشياء من حيث هي هي(٢٣) يترتَّب على القراءة التَّفسيرية الرِّوائية النَّاصّة على أنَّ الهاء ((تثبيتٌ للثابت، والواو إشارة إلى الغائب عن درْك الأبصار ولمس الحواس، وأنَّه يتعالى على ذلك، بل هو مُدْرك الأبصار ومُبْدع الحواس)).(٢٤)، ويتناسب ومعاني القِدَم والأسبقيَّة التي يوحي بها جرسُه الموسيقي، وذلك

يناسب مقام الأزلية في الوجود الواجب للذات المقدسة؛ لأنَّ زمن وجود الغائب المتحدَّث عنه سابقٌ ومتقدِّم على زمن المأمورين بالإقرار له. فالحضور الوظيفي لضمير الغيبة أساسيٌّ ومحوريٌّ؛ لإفادة تلك المعطيات المضمونية أولاً، ولتحقيق خصائص الموضوعية والطواعية في تحقُّق السُّلوك الرُّوحي والعملي المقتضى من المخلوقين ثانياً، ولو لم يكن حاضراً (قل الله أحد) لكان المعنى مستقيماً، ولكانت احتمالية حضور الذات العلية المخصوصة بالإشارة أقربَ منها إلى الغياب المقرَّر في البنية الإحالية، وهو ما يُضعف من تلك الخصائص، وهذا يتنافى ونزوعَ القرآن الكريم نحو تأكيد مبدأ الطواعية والموضوعية في حصول التَّسليم والاعتقاد والإيمان ((**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**)).(البقرة:٢٥٦) والاستدلال بالأدلة والبراهين المنطقية على الوجود الأزلي الواجب بصفاته العلية وأسبقيَّته وقِدَمِه عن زمن القول المُطالَب به أمريَّاً؛ لذلك كانت بنية الإحالة الغيابيَّة كافية لتجسيد المؤشرات المعرفية المقصودة.

يؤشِّر معنى الأحديَّة (أحد) معاني التَّفرُّد والوحدانية وما يتبعها من عدم إمكان الخضوع للعدّ والحساب والتَّجزئة والانقسام، بخلاف لفظ الواحدية (واحد) الذي يخضع لجميع ذلك(٢٥). فالأحد هو ((المتفرِّد الذي لا نظير له)).(٢٦) فهو بهذا بؤرة المقابلة الضِّديَّة المقصودة في السورة لأفكار المشركين ومزاعمهم الباطلة؛ لذلك عُدَّ مطابقاً مضمونياً لمقام أصحاب الشمال المنكرين مبدأ الوحدانية والتَّفرُّد؛ إبطالاً لاعتقادهم، مثلما عُدَّ لفظ الجلالة السابق له مطابقاً لحال أصحاب اليمين(٢٧). إنَّ انتظام تلك المعاني على وفق البناء الإسنادي الاسمي يُضفي عليها مزيداً من معاني الثبات والدوام والاستمرارية(٢٨)، ومثل ذلك جاءت البنية التركيبية التي اشتملت على توظيف معنى الصَّمديّة في موضع المسنَد إلى لفظ الجلالة (الله الصَّمد) ؛ ليكون في تناسب تامٍّ ومقام الألوهية الغنيَّة المستغنيَّة. والصَّمد هو الغني الذي يُصمَد إليه في طلب الحوائج(٢٩) ، وهو تعبيرٌ عن الكمال ونفي العجز والنَّقص(٣٠) ولعلَّ قصر الدلالة على هذا المضمون مبنيٌّ على قيمة التَّفسير الإجماليَّة، التي تجعل سمات الذات المقدسة وتأشيرها على نحو الإحاطة والشُّمول قيمة لتوضيح المراد وتقريبه إلى الفهم، فكونُهُ سبحانه وتعالى أحداً فرداً صمداً أزليٌّ، وثابتٌ، ودائمٌ، ومستقرٌ. ولعلّنا نستطيع الاقتراب أكثر من تخصيص المقصود بالصَّمد، في ضوء ما تجود به البنية النَّصية من معطيات، فمجيء تركيب إثبات الصَّمديَّة لله تعالى تالياً مضمون إثبات الوحدانية والتَّفرُّد والأزليَّة (هو الله أحد) ، سابقاً مضمون نفي الإحاطة النَّسبيَّة من جميع الجهات (لم يلد ولم يولد) (٣١) ينبيء عن أنَّ معنى الصَّمد شيءٌ بين الشَّيئَين، ومرحلة ثانية من مراحل تجسيد معنى الألوهيَّة الحقَّة، تتأسَّس على التي قبلها، وتشكل أساساً لما بعدها، فمجيؤه بعد معنى الوحدانية والتفرُّد متقدِّماً على معنى نفي الخضوع لقانون التَّناسل يدلُّ على أنَّ أحديَّته سُبحانه لا تقتضي الإثنينيَّة الاقترانيَّة التَّشاركيَّة، فهو غنيٌّ عن كلِّ شيء فعلاً، لكنَّه غنيٌّ ومستغنٍ أولاً وقبل أيِّ شيء عن الحاجة إلى القرين، على وفق علاقة الاقتران المعروفة دنيويّاً. وقد أوردتِ القراءات التفسيرية جواب الإمام الحُسين عليه السَّلام عن سؤال أهل البصرة عن معنى الصَّمد، بأنَّ معناه مفسَّرٌ فيما بعده، أي في نفي ولادته ومولوديَّته، ونفي مكافأته مطلقاً(٣٢)، ولعلّنا ثانية نستخلص ذلك على نحوٍ أجلى من سمة الالتفاتة التعبيرية الأسلوبية الماثلة في بنية نفي الخضوع للتَّناسل، المتمثلة بتقديم تركيب نفي الوالدية على

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

تركيب نفي المولودية، ليكون مضمون نفي الولادة منه سبحانه إسناديًّا تالياً لمعنى الصَّمدية ملاصقاً إيَّاه على نحو المباشرة؛ ليشكل قيمة مفهوميَّة مفادُها أنَّ معنى نفي فاعليَّته في الولادة متفرِّعٌ عن معنى استغنائه عن الولوج في علاقة الاقتران والحاجة إلى القرين ومترتِّبٌ عليه، وواضحٌ مقدار الشُّحنات التأثيرية الفاعلة في محاورة مركز الوعي والإدراك وجذبه طواعية نحو أُفق الاستدلال المنطقي والمحاججة الموضوعيَّة. ولمَّا كان موضوع السُّورة المباركة يدور حول معاني الأُلوهيَّة الحقَّة للواحد الأحد والتَّنزُّه عن معاني الوالدية والمولودية وانتفاء العنصر الوجودي المكافيء، فإنَّ توجيه معنى الصَّمد على معنى المقصود في الحاجات لا يتناسب ومركزيَّة الغاية المنشودة، المتمثلة بإرادة إثبات الطبيعة الوجودية الواجبة للذات المقدَّسة، من خلال إبراز مشخِّصاتها الذاتيَّة المائزة والحضِّ على التَّصديق بها والتَّسليم لها والإخلاص في طاعتها وعبادتها، وتحقيق معنى الإيمان بها على وُفق سمات الموضوعيَّة والطَّواعية، التي جاءت ثيمة الغياب في جملة مقول القول معبِّرة عنها خير تعبير، وهو ما لا يتأتَّى من قيمة التَّوجيه التَّفسيريَّة (الذي يُقْصَد في جميع الحوائج)؛ وذلك من جهتين: الأولى تتمثّل بكونها – في حدود مؤشِّراتها المضمونيَّة – من مشخِّصات معنى الرُّبوبيَّة، الذي تتحدَّد قيمته الوظيفيَّة في سياقات الرَّحمة الرَّبّانيَّة المُنبئة عن معاني الفضل والرِّزق والإنعام وغيرها ممَّا يقتضي التَّقيّد بجهات المرحومين، وهذا ممّا لا يبدو له نصيبٌ في الغايات التَّعبيرية الهادفة لتقرير معنى الأُلوهيَّة، أمَّا الجهة الثانية فتتمثّل بانبنائها (القيمة التَّوجيهيَّة) شكليّاً على مظهر البناء للمجهول يُقْصَد/مقصُود، وهو ملمحُ تحويلٍ أسلوبيٌّ يُفارق في طبيعة انصراف خصائصه التَّعبيريَّة ما انبنتْ على وُفقه الأشكال التَّركيبيَّة الأُخرى المشارِكة في النَّص؛ لأنَّه لا يُخبِرُ عن سمات معنى الأُلوهيَّة حجاجيَّاً على النَّحو الذي تُؤدِّيه تلك الأشكال والتراكيب، التي تجعلهُ بؤرة مركزيَّة وقيمة خبريَّة مباشِرة لمساراتها المضمونيَّة؛ لتحقيق أقصى قدرٍ من الفاعلية الإقناعية والتأثير اللغوي.

لقد انتظم مضمون نفي الخضوع للتناسل (لم يلد ولم يولد) على وفق البنية التركيبية الفعلية الحدثيَّة المضارعية المسبوقة بالنَّفي، منمازاً عن الطبيعة التركيبية للمضمونين السابقين؛ ليشكل قيمة انسجامٍ وتناسبٍ في إفادته نفيَ الوالدية والمولودية فاعلياً ومفعولياً، في ضوء حركيّته الحدثية التراجعيَّة الماضوية ومعانيَ الثبات والأصالة والدوام والملازمة، في الوحدانية الأحدية والصَّمدية الاستغنائية المتشكلة على وفق البنية الاسنادية الاسمية.

ثانياً/ مؤشرات التَّشكُّل الأُسلوبي :

تشكِّل الخاصيَّة الأُسلوبيَّة مصدراً رئيساً للفاعلية التأثيرية التي تسعى إليها النُّصوص اللسانية العالية؛ كونها تتحرَّى دراسة الخصائص اللغوية والسمات التعبيرية الشكلية والمعنوية، التي تؤدي إلى التأثير في المتلقي وإقناعه بمضمون النَّص المراد إيصاله(٣٣)، فهي عمليَّة اختيار العناصر اللغوية وانتقائها وإعادة توزيعها على نحوٍ يُحقق للنَّص خصائص التأثير والفاعلية والإثارة وصولاً إلى إنتاج منظومة لسانية حجاجيَّة، تمارس وظيفتها التواصلية في الإفهام والتَّفهيم(٣٤)، من خلال تقديم الملفوظات اللسانية وكأنَّها

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

مجموعة من الحجج والبراهين، التي ينبغي الالتفات إليها ومراعاتها في عملية التلقي(٣٥). وهذا ما نلاحظه جليَّاً في النَّص القرآني المبارك، فإنَّه يحرص على الحضور الفاعل لمتلقيه ملاحظاً، ومستخلصاً، ومستنتجاً، وقارئاً المسكوتَ عنه داخل الخطاب، متَّخذاً منه وسيلة لفهم خصائصه التعبيرية ومقاربتها على النحو المقتضى. إنَّ أول المؤشرات الأسلوبية التي تستثير القراءة والتحليل تتمثل بتوظيف واسطة الإلصاق والاستعانة الحرفيَّة (الباء) في تركيب آية البسملة، زيادة على ترسيخ معنى الرَّحمة في البنيتين الوصفيَّتين، وملمح التوظيف الأسلوبي لصيغة فعل الأمر، وبنية الغيبة الإحالية، ولفظ الأحدية والصَّمدية التي تمت الإشارة إليها في سياق مؤشرات البناء الإسنادي؛ لأنَّ اختيارها وظيفيَّاً من دون غيرها من عناصر النظام اللغوي بشكل عام وتلك التي تشاركها في الحقل الدلالي بشكل خاص يُعبِّر عن بُعدٍ من أبعاد الخاصية الأسلوبية، يتمثل بدقة الاختيار والتوزيع تبعاً للمقتضيات التعبيرية المقصودة.

يُعدُّ تقديم معنى نفي والديَّته سبحانه أو معنى نفي فاعلية الولادة منه (لم يلد) على معنى نفي مولوديَّته (لم يولد) ملمحاً أُسلوبياً تركيبيَّاً/مضمونيَّاً بارزاً؛ لأنَّ الواقع التعبيري يفترض تقديم مضمون العلاقة التقييدية من الولادة (لم يولد) على معنى العلاقة الإسنادية منه (لم يلد)؛ إذْ لا يكون الوالد والداً إلّا بعد أنْ يكون مولوداً أولاً وفي الأساس، ومن ثمّ يكون هذا الملحظ كاشفاً عن بصيرة نصيَّة واعية اقتضت مجيء مضمون العلاقة الإسنادية تالياً على نحو المباشرَة معنى الأُلوهيَّة الصَّمدية، مفصِحاً عن قيمة توضيحية تفسيرية لماهيَّة الصَّمديَّة وكونه تعبيراً عن معنى الاستغناء عن الدخول في علاقة الاقتران والغنى عن القرين المشارِك، المترتِّب حجاجيَّاً على معنى الأحديَّة والتّفرُّد، المتمثل نظيرُه الاستدلاليُّ في قوله تعالى: ((**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)). (الأنعام:١٠١) وقوله تعالى: ((**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً**)). (الجن:٣) زيادة على ما تمَّ تأشيره في القراءات التَّفسيرية من أنَّ ملحظ التقديم يهدف للرد على مزاعم اليهود والنَّصارى والمشركين الذين جعلوا له سبحانه ولداً، وبناتٍ، وجعلوه ثالث ثلاثة(٣٦)، فلو كانت له صاحبة سبحانه لكان والداً، ولأُثبِتَ له وصفُ الولادة إسناديّاً؛ إذْ إنَّ إثبات وجود الصّاحبة وإثبات الوالدية يقتضي كلٌّ منهما الآخر؛ لذلك جاء النفيُ لمضمونهما معاً، فنفيُ والديَّته جلَّ وعلا متفرِّعٌ عن استغنائه عن القرين ومترتِّبٌ عليه. وإذا كان مضمون نفي الوالدية متحصَّلاً من مضموني الأحدية والصمدية فإنَّ مضمون نفي المولودية متحصِّلٌ منها جميعاً. وعلى هذا النَّحو أتاح ملمح التقديم الأسلوبي ((لمساحة الحجاج التداولي أن تكون مصحوبة بحمولات من المعنى المؤثر في المخاطب)).(٣٧) إنَّ الاتِّصاف بمعنى الولادة على نحو المفعوليَّة التَّقييدية (لم يُولد) يُمثِّل الحدَّ الأدنى من الوصف الذي تشترك فيه أغلب الموجودات التي يتبادر إليها الذّهن وعياً وإدراكاً؛ لأنَّ طبيعتها في التّوالد لا تستدعي الحُجج الإثباتية وسوقَ الأدلة والبراهين، ولو لم يكن كذلك لما جيء به في هذا السياق التعبيري؛ لذلك جاء توظيفه في هذا السّياق مجسِّداً البصيرة القرآنية الثاقبة في توظيف الوحدات اللغوية على نحوٍ أُسلوبيٍّ فعَّال. ولمَّا كان من شأن كلِّ مولود أنْ يُماثلَ، ويُشابهَ، ويُكافيء مَنْ يشترك معه في صفة المولوديَّة فإنَّ من المناسَبة المنطقية والانسجام التام أنْ يأتي نفيُ معنى مولوديَّته سُبحانه وتعالى متقدِّماً

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

على معنى نفي الموجود المكافيء له الذي أعقبه مباشَرة؛ ليكون مدخلاً له وتوطئة، وثيمة دلالية مُمهِّدة لمجاله الوظيفي المضموني. فمثلما كان نفيُ معنى الوالدية دليلاً بعديّاً لاحقاً على معنى الاستغناء وعدم الافتقار الموجَّه مركزيّاً نحو العلاقة الاقترانية، كان نفيُ معنى المولوديّة دليلاً قبليّاً سابقاً على معنى نفي المكافأة والمماثلة والمشابهة؛ ولمّا كان في إثبات معنى المولودية إثباتٌ لمعنى المخلوقية والموجودية المماهية المماثلة، وفي نفيه نفيٌ لتلك المعاني فقد جاء معنى نفي المولودية سابقاً معنى نفي المكافأة المقتضى تقييدُهُ بخصائص الوجودية العليّة الواجبة؛ ليكون المعنيان في تناسبٍ مفهوميٍّ مطلق، محكومٍ بعلاقة التّلازم والاقتضاء المتبادَل، أي أنّ انتفاء معنى المولودية يقتضي انتفاء معنى المكافأة، وانتفاء معنى المكافأة يقتضي انتفاء معنى المولودية. وهكذا يتفنّن الخطاب المبارك في التّصرُّف بتراتبيَّة موظّفاته اللغوية وتنويع مواقعها تنويعاً فنّيًّاً، بالقدر الذي يخلق فاعليّة إقناعية، تؤثّر في جهة التلقي تأثيراً مباشراً، وتؤدي إلى تحقيق الخصائص التعبيرية المنشودة(٣٨).

في ضوء ما تقدَّم يتَّضح أنَّ انتظام معنى نفي المكافأة (ولم يكُن له كفواً أحد) في آخر سورة التَّوحيد يُجسِّد قمة الوعي في غايات الفلسفة الخطابية السّامية، في أنْ يكون هذا المضمون خاتمة منظومة الاستدلال لمعنى الألوهيَّة الحقّة، والحلقة الأخيرة في سلك سلسلته الإقناعية الحجاجية. والملاحظ تشكُّل المضمون على وفق البنية الاسنادية الاسمية المتأثرة بالنَّاسخ الفعلي النَّاقص، واقعة في نطاق تأثير عامل النَّفي الذي ترسَّخت أبعاده التعبيرية؛ نتيجة تكرُّره وحُضوره الوظيفي الكثيف(٣٩). وقد اقتضت البنية المضمونية للنَّص حصول انزياحٍ محوري في بنيته النَّصيَّة المحدودة، استند إلى خاصية التَّصرُّف الأُسلوبي برُتب المكوِّنات الوظيفية وخصائصها الموقعية، فقد ظهر شبه الجملة المتعلق بالخبر (لهُ) على سطح المبنى النَّصي لجملة الكينونة المنفية قبل أنْ يظهر طرفا البناء الإسنادي المنفي، وهذا يُؤشر قصديّة تخصيص الذات المقدَّسة بمعنى نفي كينونة المكافيء له سبحانه(٤٠)، على وفق صفات الأحدية التَّفرُّدية، والصَّمديَّة الاستغنائيَّة، وانتفاء الوالدية والمولودية زيادة على نفي المكافأة المشتمل على ملمح الخاصية الأسلوبية. ولم يقتصر الانزياح الرُّتبي على متعلق الخبر (كُفواً)، بل شمل الخبر نفسَه، فقد تقدَّم على الاسم (أحد)، فدلَّ الانزياح الثُّنائي على قوَّة معنى النَّفي المسلَّط على معنى وجود المكافيء، للأحد الفرد الصَّمد المستغني في صفته الوجودية الواجبة التي لا يشاركه فيها أحدٌ البتّة، وليُنبِّه إلى ضرورة التَّفريق والتَّمييز بين أحديَّة الواجب في وجوده سبحانه، المنصوص عليها بالحُجج والأدلة والبراهين المتقدِّمة، وبين أحديّة المثيل المكافيء المنفيَّة كينونتها مطلقاً. إذْ ليست الغاية تحقق جملة الكينونة المنفية بعناصرها الوظيفيَّة الأساسية (الفعل النَّاسخ ومعموله)، إنَّما الأهم هو وجودها لأجل المتعلق بها (لهُ)، فالتَّوقُّف عند (لم يكُن لهُ) يؤشر محورية بنية التعليق في إكساب النص صفة الجريان بوتيرة واحدة، فضلاً عن الإشعار باتِّحاد قيمتيه الشكلية والمضمونية؛ لينتبه القاريء والمتلقي إلى أنَّ هذا المفصل الخطابي ليس معنيّاً بالمكافيء ولا بأحدٍ الفاني في وجوده الممكن المفترَض واستحالة كينونته المكافئة، إنَّما الاهتمام كلُّ الاهتمام بـــــــ (هو ، لهُ) ليس إلّا، أي نفي كينونة المكافيء المتعلقة به سبحانه؛

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

فهذا ما يفرضه النَّظر إلى المعنى الوجداني للَّفظ الذي يمثل مجالاً واسعاً من الأفكار والانفعالات والميل نحو الفعل القولي(٤١).

يُلمَح أنَّ متعلق الخبر (لهُ) يمثل حلقة التّواصل والتّرابط بين مكوِّنات السُّورة المباركة، بل هو الضَّامن الحقيقي للوحدة العُضوية الموضوعية فيها، فاتِّحاد البنيتين الإحاليَّتين (الهاء في لهُ، وهو) في القيمة المرجعيَّة وفي التعبير عن معاني الموضوعية والطّواعية في الإيمان والتَّسليم، المترتبة على مؤشرات الغيبة الإحالية يُوحي بأنَّ الغاية المقصودة ههنا هي (الهُو) ، الأمر الذي يُعزِّزه إشباعُ صوت الضّمة الماثل على الهاء ومدُّه (لهو)، وإدماجه في وعي المتلقي وإداركه، وتجسير العلاقة التواصلية اللفظية والمفهومية بينه وبين بنية الغيبة الإحالية المنفصلة (هو) المنتظمة في المفصل الأول من السُّورة. إنَّ في تقديم المعمول الخبري في جملة الناسخ الفعلي على المعمول الاسمي يدلُّ على انصراف مضمون النفي أولاً وبالأساس إلى معنى المكافأة؛ لأنَّه صاحب المدخلية المباشرة في إثبات صفات الذات الوجودية الواجبة المطلقة، أمَّا (أحد) فإنَّه مجموعة خالية مبنية على الاستحالة القطعيَّة، اقتضت بنية السياق المنفي حضورها الوظيفي المفترض، في حدود قيمتها الصِّفرية الفارغة. وهكذا نستنتج أنَّ كينونة الكفؤ المفترض حجاجيّاً فانيةٌ ومنعدمةٌ في وجودها الممكن المحدود، وتقتضي الإثنينيَّة والتَّعدد والاقتران، وتخضع لقانون التناسل الولادي إسناداً وتقييداً، وتتَّسع دائرة مشابهاتها ومماثلاتها ومكافئاتها نوعيَّاً وعددياً، وبهذا فإنَّها تنماز كليّاً وجوهريّاً عن ذات الوجود الواجب المطلق. إنَّ منهجيَّة القرآن الكريم تتجلّى في وضعِهِ أُسُسَ الوصول إلى حقائق الوجود، ومنها التَّنبيه إلى الأسباب والغايات، وعدم الاستسلام إلى الأفكار النَّظريَّة الظَّنيّة المجرَّدة، والحثّ على اتِّباع طرائق الاستقراء والاستدلال والاستنتاج، وتفعيل الطاقة البشرية المادية كلِّها(٤٢). وعلى هذا يكون توظيف عامل النفي، وتقديم متعلق الخبر على الطرفين، وتقديم المسند الخبري على المسند إليه الاسمي/الابتدائي خصائصَ أُسلوبية تأثيريَّة فاعلة إقناعيَّاً، اقتضى سياق الاستدلال والإثبات حضورها على هذا التَّرتيب المميَّز؛ لترسيخ سمات التَّعبير الحجاجي المنشودة، ممثلة بتقرير معنى الألوهية الحقة للذات العليَّة المقدَّسة، انطلاقاً من تخصيصها بمعنى المكافأة الأحديَّة المنفيَّة. وذلك يدلُّ على أنَّ التأثير في المتلقي وإقناعه ومحاججته بالحُجج والأدلة والبراهين غاية العمليَّة التَّواصليَّة القرآنيَّة وهدفُها المركزي؛ لذلك تسعى إلى جعل مراعاة وعيه وحاله وجذب انتباهه وتركيزه سبباً، في ترتيب التراكيب والجمل ورصْف مكوِّناتها الوظيفيَّة، على وفق هيئة نظميَّة مخصوصة.

خُلاصة بأهمّ نتائج البحث:

في ختام هذه السِّياحة البحثيَّة في سورة التَّوحيد المباركة نورد جملة من النَّتائج التَّحليلية التي انتهت إليها، وعلى النَّحو الآتي:

– تُشكِّل سورة التَّوحيد المباركة _على قِصَر بنيتها النَّصيَّة_ منظومة تعبيرية حجاجيَّة خالصة، تختزل خصائص نظامها السَّماوي السَّامي، وتنهض بغايات فلسفته التَّواصليَّة.

– تتَّسع المساحة التعبيرية لسورة التوحيد لتشمل الخصائص الوظيفيَّة المتمثلة بآية البسملة، التي جاءت مشحونة بمؤشرات التأثير والإقناع الواجبِ اكتناهُها واستثمارُها في تحقيق الهدف المنشود تواصلياً.

– توزّعت ركائز الإقناع والتأثير اللغوي في سورة التّوحيد بين مؤشرات البناء الإسنادي المتَّصلة بعلاقتي الإسناد الاسميَّة والفعليَّة، وبين مؤشرات البناء الأسلوبي المتشكِّلة داخل حدود الإسناد بغضِّ النَّظر عن طبيعته.

– تُفصِح مؤشرات البناء الإسنادي عن معنى التَّفاوت في سمات التعبير المترتِّبة على نوعيهِ المتمايزَيْن. فبناءُ بعض القيم المضمونية في السُّورة المباركة على وُفق علاقة الإسناد الاسمي يتناغم وخصائصَ الثَّبات والدَّيمومة والاستقرار، المُراد تقريرُها وتأكيدُها في طبيعة الوجود الأزليَّ الخارج عن فضاءات التَّقييد الظَّرفي، المتَّصلة بالذّات الوجوديَّة العليَّة الواجبة المطلقة، الأمر الذي يوحي حجاجيَّاً بأبعاد التَّمايز والانفصال والمفارقة في نفي مجانستِها الذواتِ الوجوديةَ الممكنة.

– جاءت مؤشرات البناء الإسنادي الفعلي محاكية الخصائص التّعبيرية المنشودة من الطبيعة التشكلية المميَّزة، فانتظامُ مضامين نفيِ (الوالديَّة والمولوديَّة) على وُفق علاقة الإسناد الفعلي يؤشِّر خصائصَ الحركيَّة والحيويَّة المقصود إضفاؤها على انتفاء علاقتي الإسناد الفاعلي والتَقييد المفعولي بمعنى الولادة على نحو حدثيّ، اللتين تتجسَّدان في مشخَّصات الوجود الممكن المخصوصة بأبعاد الإقناع والمحاججة.

– تنوَّعت مؤشِّرات البناء الأسلوبي في سورة التَّوحيد بين خصوصيَّة توظيف عناصر لغويَّة معيَّنة من دون غيرها، زيادة على مظهر التَّكرار الأسلوبي الذي اتَّضحت معالمه في أكثر من موضع، سواءٌ على صعيد المباني الشكلية أو القيم المعنوية المضمونية. وقد احتلّت خاصيَّة التَّقديم والتأخير مرتبة المركز ضمن خصائص الإقناع الأُسلوبي في النَّص التَّوحيديّ المبارك، إذْ تبدّى ذلك جليّاً عند مفصل التعبير عن معنى نفي خُضوعه سبحانه وتعالى للتَّناسل الولادي إسناداً وتقييداً، ومفصل تقديم متعلق الخبر في جملة الكينونة المنفية على معموله وما أُسنِد إليه، وتبيَّن ما لذلك التَّصرُّف الأسلوبي من أثرٍ في تماسك النَّص ووحدته العُضوية شكلاً ومضموناً.

– شكَّلت الخصائص التّركيبية لسورة التوحيد ببُعدَيْها الإسنادي والأسلوبي منظومة لغويَّة حجاجيَّة فاعلة ومؤثِّرة، متآزرة في مخاطبة الوعي والإدراك واستمالته نحو أُفُقها المفهومي السَّامي.

هوامش البحث :

١/ يُنظر: مجمع البيان في تفسير القرآن للعلّامة الطَّبرسي: ٣٧٢/١٠-٣٧٣ .

٢/ يُنظر: مفاتيح الغيب للرّازي: ٢٩٢/١٧ ، البُرهان في تفسير القرآن للسّيد هاشم البحراني: ٤٢٧/٨ ، صفوة التَّفاسير لمحمد علي الصَّابوني: ٦٢٠/٣٠ .

٣/ يُنظر: المنزع الحجاجي في سورة التوحيد: ١٩١ .

٤/ يُنظر: لطائف الإشارات للقُشيري: ٥٧/١ .

٥/ في نور القرآن لعبدالهادي عطيَّة: ٧٧/١ .

٦/ يُنظر: روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسَّبع المثاني لمحمود الآلوسي: ٤٧/١ ، المنهج الأسلوبي في الدراسات القرآنية عن تفسير سورة الفاتحة اختياراً: ٤ .

٧/ يُنظر: مفاتيح الغيب: ٥٨/١-٥٩ ، تفسير أبي السَّعود لأبي السَّعود العمادي: ١٢/١-١٣ ، روح المعاني: ٣٠/١ .

٨/ يُنظر: الزِّينة في الكلمات الإسلامية لأبي حاتم الرَّازي: ١٨٦/١ ، تفسير البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسي: ١٥/١ ، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم لمحمد أحمد مكّاوي: ٧٢ ، الاسم الأعظم لمحمد الغروي: ١٣٤-١٣٥ ، الذات الإلهية وفق المفهوم الفلسفي ٤٣-٧٢ .

٩/ يُنظر: الله والإنسان في القرآن لتوشيهيكو إيزوتسو: ٥٢-٧٦ ، مرجعيَّة التَّوصيف في تركيب آية البسملة دراسة وصفيَّة تحليليَّة: ٣٩٦-٣٩٧ .

١٠/ يُنظر: المنهج الأسلوبي في الدراسات القرآنية: ٧ ، مرجعية التوصيف في تركيب آية البسملة: ٤٠٨ .

١١/ يُنظر: الإعجاز القرآني وآلية التفكير النقدي عند العرب وبحوث أخرى للدكتور علي مهدي زيتون: ٢٧٢.

١٢/ يُنظر: مرجعية التوصيف في تركيب آية البسملة: ٤٣٠-٤٣٢ .

١٣/ يُنظر: بنية اللغة الشعرية لجان كوهن: ١٣٣ .

١٤/ يُنظر: مرجعية التوصيف في تركيب آية البسملة: ٤٣٩ .

١٥/ يُنظر: مفردات ألفاظ القرآن للرّاغب الأصفهاني (قول) : ٦٨٨ ، أساس البلاغة للزمخشري (قول) : ١١٠/٢ ، لسان العرب لابن منظور (قول) : ٣٧٧٧/١ .

١٦/ يُنظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٦٨٨-٦٩٠ ، أساس البلاغة: ١١٠/٢ ، لسان العرب: ٣٧٧٧/١ .

١٧/ التحقيق في كلمات القرآن للعلّامة المصطفوي (قول) : ٣٧٦/٩ .

١٨/ يُنظر: التبيان في تفسير القرآن للشيخ الطُّوسي: ٢٦٩/٧ ، النِّظام النحوي للقرآن الكريم للدكتور حسن منديل العكيلي: ٣١ .

١٩/ يُنظر: مفردات ألفاظ القرآن (قول) : ٦٨٨ ، الظَّواهر النحوية القرآنية في دراسات المحدثين دراسة وتقويم: ٧٤ .

٢٠/ التحقيق في كلمات القرآن (قول) : ٣٧٧/٩ .

٢١/ يُنظر: مفردات ألفاظ القرآن (قول) : ٦٨٨ .

٢٢/ يُنظر: مجمع البيان: ٣٧٣/١٠ ، صفوة التَّفاسير: ٦٢٠/٣٠ ، التحرير والتنوير: ٤٣٣/١٦.

٢٣/ يُنظر: المنزع الحجاجي في سورة التوحيد: ١٩٣ .

٢٤/ مجمع البيان: ٣٧٣/١٠ .

٢٥/ يُنظر: مجمع البيان: ٣٧٣/١٠ ، صفوة التفاسير: ٦٢٠/٣٠ .

٢٦/ البرهان في تفسير القرآن: ٤٣٠/٨ .

٢٧/ يُنظر: المنزع الحجاجي في سورة التوحيد: ١٩٣ .

٢٨/ معاني الأبنية في العربية للدكتور فاضل السامرائي: ٩-١٧ .

٢٩/ يُنظر: مفردات ألفاظ القرآن (صمد) : ٤٩٢ ، الكشَّاف للزمخشري: ٣٣٧/٧ ، روح المعاني: ٢٧٣/٣٠ .

٣٠/ يُنظر: صفوة التفاسير: ٦٢٢/٣٠ .

٣١/ يُنظر: المصدر نفسه: ٦٢١/٣٠ .

٣٢/ يُنظر: مجمع البيان: ٣٧٧/١٠ ، البرهان في تفسير القرآن: ٤٣١/٨ .

٣٣/ يُنظر: المنهج الأسلوبي في الدراسات القرآنية: ٤ .

٣٤/ يُنظر: الانزياح في الخطاب البلاغي والنقدي عند العرب للدكتور عباس رشيد الددة: ١٤٥ ، أوراق في تلقِّي النَّص الإبداعي ونقده للدكتور عبدالرضا علي: ٢٧ .

٣٥/ يُنظر: سيمياء الأنساق تشكلات المعنى في الخطابات التراثية للدكتورة آمنة بلعلي: ١٣٠ .

٣٦/ يُنظر: مفاتيح الغيب: ٣٠٣/١٧ .

٣٧/ المنزع الحجاجي في سورة التوحيد: ١٩٨ .

٣٨/ يُنظر: الله والإنسان في القرآن: ٣٠٥ .

٣٩/ يُنظر: المنزع الحجاجي في سورة التوحيد: ١٩٨ .

٤٠/ يُنظر: التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة للدكتور محمود عكاشة: ١٤٥ .

٤١/ يُنظر: اللغة وعلم النفس للدكتور موفق الحمداني: ١٧٥ .

٤٢/ يُنظر: المنظار الهندسي للقرآن الكريم للدكتور خالد فائق العبيدي :٧٤ .

قائمة المصادر :

القرآن الكريم

– أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر الزَّمخشري (ت٥٣٨ه) ، دار صادر – بيروت، ط١، ١٣٩٩ه – ١٩٧٩م .

– الاسم الأعظم أو معارف البسملة والحمدلة، محمد الغروي، مؤسَّسة الأعلمي – بيروت، ط١، ١٤٠٢ه – ١٩٨٢م .

– الإعجاز القرآني وآليَّة التفكير النَّقدي عند العرب وبحوث أخرى، د. علي مهدي زيتون، دار الفارابي – بيروت، ط١، ٢٠١١م .

– الله والإنسان في القرآن – علم دلالة الرُّؤية القرآنية للعالم، توشيهيكو إيزوتسو، ترجمة وتقديم: د. هلال محمد الجهاد، المنظَّمة العربية للتَّرجمة – بيروت، ط١، ٢٠٠٧م .

– الانزياح في الخطاب النَّقدي والبلاغي عند العرب، د. عبَّاس رشيد الدَّدة، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ط١، ٢٠٠٩م .

– أوراق في تلقّي النَّص الإبداعي ونقده، د. عبدالرّضا علي، دار الشُّروق – عمَّان، ط١، ٢٠٠٧م .

– البُرهان في تفسير القرآن، السّيد هاشم البحراني، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين، دار المجتبى – قُم المقدَّسة، ط١، ١٤٢٨ه – ٢٠٠٧م .

– بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة: محمد الولي و محمد العمري، دار توبقال – المغرب، ط١، ١٩٨٦م .

– التِّبيان في تفسير القرآن، الشَّيخ الطُّوسي (ت٤٦٠ه) ، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة الإعلام الإسلامي – بيروت، ط١، ١٤٠٩ه – ١٩٨٩م .

– التَّحرير والتَّنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مؤسَّسة التأريخ – بيروت، ط١، ٢٠٠٠م .

– التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم، العلَّامة المصطفوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٣، ١٤٣٠ه – ٢٠٠٩م .

– التَّحليل اللغوي في ضوء علم الدَّلالة، د. محمود عكاشة، دار النَّشر للجامعات – القاهرة، ط١، ١٤٢٦ه – ٢٠٠٥م .

– تفسير أبي السَّعود المسمّى (إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا القرآن الكريم) ، أبو السَّعود محمد العمادي (ت٩٥١ه) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٤، ١٤١٤ه – ١٩٩٤م .
– تفسير البحر المحيط، أبو حيَّان الأندلسي (ت٧٤٥ه) ، دار الفكر – بيروت، ط٢، ١٣٩٨ه – ١٩٧٨م .
– الذّات الإلهيَّة وفق المفهوم الفلسفي، مالك مهدي خلصان، مركز الأبحاث العقائدية – شبكة الإنترنت، ٢٠٠٧م .
– روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسَّبع المثاني، محمود الآلوسي (ت١٢٧٠ه) ، ضبط وتصحيح: عبدالباري عطيَّة، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢، ١٤٢٦ه – ٢٠٠٥م .
– الزِّينة في الكلمات الإسلامية والعربية، أبو حاتم الرَّازي (ت٣٢٢ه) ، تحقيق: حسين بن فيض الله الهمداني، دار الكتاب العربي – القاهرة، ط١، ١٩٥٧م .
– سيمياء الأنساق تشكلات المعنى في الخطابات التراثية، د. آمنة بلعلي، دار رؤية – القاهرة، ط١، ٢٠١٥م.
– صفوة التَّفاسير، محمد علي الصَّابوني، دار القلم – بيروت، ط٥، ١٤٠٦ه – ١٩٨٦م .
– الظَّواهر النَّحوية القرآنية في دراسات المحدثين دراسة وتقويم، ميثاق حسن عبدالواحد (أُطروحة دكتوراه) ، جامعة البصرة – كليَّة التربية للعلوم الإنسانية، ١٤٣٨ه – ٢٠١٦م .
– عقيدة التَّوحيد في القرآن الكريم، محمد أحمد مكّاوي، مكتبة دار الزمان – القاهرة، ط١، ١٩٨٥م .
– الكشَّاف عن حقائق التَّنزيل وعُيون الأقاويل في وُجوه التأويل، جار الله محمود الزمخشري (ت٥٣٨ه) ، دار المعرفة – بيروت ، ط١ ، د.ت.
– لسان العرب، ابن منظور الأنصاري (ت٧١١ه) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة، ط١، ١٣٠٠ه .
– لطائف الإشارات، عبدالكريم القشيري، تحقيق: د. إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للنشر – القاهرة، ط١، ١٩٧١م .
– اللغة وعلم النَّفس، د. موفَّق الحمداني، دار الكتب – جامعة البصرة، ط١، ١٩٨٠م .
– مجمع البيان في تفسير القرآن، العلَّامة الطَّبرسي (ت٥٦١ه) ، تحقيق وتصحيح وتعليق: باسم الرَّسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٣٧٩ه .
– مرجعيَّة التوصيف في تركيب آية البسملة دراسة وصفيَّة تحليلية، د. ميثاق حسن عبدالواحد، مجلّة ص، العدد ١٩، شتاء ٢٠١٨م .
– معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرَّائي، مطبعة جامعة بغداد، ط١، ١٩٨٠م .
– مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦ه) ، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٥ه – ٢٠٠٤م .
– مفردات ألفاظ القرآن، العلَّامة الرَّاغب الأصفهاني (ت٤٢٥ه) ، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم – دمشق، الدار الشامية – بيروت، ط٤، ١٤٢٥ه .
– المنزع الحجاجي في سورة التَّوحيد، د. هادي شندوخ حميد و د. رائد مجيد جبَّار، مجلّة جامعة ذي قار، العدد ١، ٢٠١٧م .
– المنظار الهندسيّ للقرآن الكريم، د. خالد فائق العبيدي، دار المسيرة – عمَّان، ط٢، ١٤٢٦ه – ٢٠٠٥م .
– المنهج الأسلوبي في الدراسات القرآنية عن تفسير سورة الفاتحة اختياراً، د. عواطف كنوش مصطفى، مجلّة آداب البصرة، العدد ٣٨، ٢٠٠٥م .
– النِّظام النحوي في القرآن الكريم دلائل الكلِم، د. عبدالوهاب حسن حمد، دار صفاء – عمَّان، ط١، ٢٠١٠م.